

المحاضرة الثانية:

نشأة الأدب الصوفي



مرحباً بك عزيزي الباحث..عزيزتي الباحثة، في هذه المحاضرة من مساق مادة الأدب الصوفي، والتي تُقدّم ضمن الدروس عن بعد.نتحدّث في هذه المحاضرة عن موضوع هام وهو نشأة الأدب الصوفي.

نشأة وتطور الأدب الصوفي:

تمهيد:

قد كان للصوفية أدب غزير شعر أو نثر ينطلق بما تتطوي عليه سرائرهم، وتخفيه ضمائرهم ويشف عن حكمة بالغة، وفهم واسع وعقل راجح وخيال خصب، فلقد جاء أدبهم نتاج قرائح صافية وقلوب واعية و اشراقات إلهية ميزته عن سائر المدارس الأدبية وذلك لعنايته الفائقة بالرمز والغموض والإشارة، وقد كانت له ألفاظه الخاصة به وأساليبه وتناوله للمعاني والأفكار بطريقة تتدفق عن قرائح بقية الشعراء، فقد تناولوا أغراض الحب الإلهي والحنين والوجد والبقاء ووصف الخمر والعزل الإلهي والزهد بصورة لا يفهمها إلا من سلك طريقهم ونهل من مشاريعهم فجاء أدباء شعره ونثره طابع خاص جعله ذا سمات تحدد معالمه وتبين رسومه بحيث لا يخفى على الأدب أن يميز بينه وبين غيره من ألوان الأدب:1.

يقول الأستاذ أمين: "متحدثاً عن الأدب الصوفي باعتباره: "أدب غني في شعره غني في فلسفته، شعره من أغنى ضروب الشعر وأرقاها، وهو سلس واضح وإن غمض أحياناً، وفلسفته من أعمق أنواع الفلسفة الإلهية وحدها ويعانيه في النهاية السمو تقرؤها فتحسب أنك تقرأ معاني رقيقة عارية لا ثوب لها من الألفاظ، خياله رائع يسبح بك في عالم كله جمال وعواطف صادقة يعرضها عليك كأنها كتاب إلهي تقبله أنامل الملائكة يقدر الشعراء فيه الحب ولا بد أن يكون الإنسان هاما أيضا

1- علي الخطيب: اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن عربي، دار المعارف، القاهرة، مصر، دط، ص 85.

مسلحا بكثير من الأذواق والمواجيد والحالات التي يعتقدها المتصوفة حتى يساريهم في الفهم .²

ويمكن تقسيم الأدب الصوفي إلى ثلاثة مراحل:

المرحلة الأولى: يبدأ من ظهور الإسلام وينتهي في أواسط القرن الثاني للهجرة تدعو إلى الزهد والتقشف وكثرة العبادة والورع.

المرحلة الثانية: يبدأ من أواسط القرن الثاني الهجري إلى القرن الرابع .وفيه يظهر علم الكلام.

والأدب الصوفي في طوريه الأول والثاني أغلبه نثر، وإن ظهر الشعر قليلا في طوره الثاني .وفي المرحلة الثانية ظهرت الاصطلاحات الصوفية والشطحات.

المرحلة الثالثة: يستمر حتى نهاية القرن السابع وأواسط القرن الثامن، وهو العصر الذهبي في الأدب الصوفي، غني في شعره، غني في فلسفته .وقد تطور الأدب الصوفي نثرا وشعرا، وبلغ الشعر الصوفي ذروته مع ابن العربي وابن الفارض في الشعر العرب.

ولم يظهر الشعر الصوفي إلا بعد شعر الزهد والوعظ الذي اشتهر فيه كثيرا أبو العتاهية ، و قد ظهر الشعر الصوفي كذلك بعد شعر المديح النبوي وانتشار التنسك والورع والتقوى بين صفوف العلماء والأدباء والفقهاء والمحدثين كإبراهيم بن أدهم، وسفيان الثوري، وداود الطائي، ورابعة العدوية .وبعني هذا أن الشعر الصوفي ظهر في البداية عند كبار الزهاد والنساك، ثم "أخذت معالمه تتضح في النصف الأول من القرن الثالث الهجري.

"الأدب الصوفي هو الأدب الذي أنتجه الزهاد والصوفية بمختلف اتجاهاتها السنية والفلسفية ويكون إما قصائد منظمة أم نثرا فنيا أرقى البيان، ويشتمل على عدّة أغراض، هي :

² - ينظر: علي الخطيب :اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن عربي، ص 247.

1- الغرض الأول: المديح النبوي:

هذا اللون من الأدب امتداد لفن المديح في الشعر العربي، امتاز بصدق العاطفة
حرارة الشعور وفرط الوجود وشدة التعلق بالرسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام،
فكان ترجمة صادقة لما يحتمل في نفسه المحب من وجد وعشق وهيام، كما كان
وسيلة لنيل القرب إلى الله تعالى.

ومن أشهر شعراء المديح النبوي الإمام البوصيري رحمه الله الذي ببردته المشهورة
وكثرة ومدائحه للرسول صلى الله عليه وسلم كقوله:

أَمَدَائِحُ لِي فِيكَ أَمْ تَسْبِيحُ *** لَوْلَاكَ مَا غَفَرَ الذُّنُوبَ مَدِيحُ
حَدَّثْتُ أَنْ مَدَائِحِي فِي الْمُصْطَفَى *** كَفَّارَ لِي وَالْحَدِيثُ صَحِيحُ

2- الغرض الثاني: الحب الإلهي:

والحب الإلهي عند الصوفية استغرق كثيرا من أشعارها بل هو جلّها، فالحبّ هو
الميل إلى المحبوب، وحب العبد لله يقتضي طاعة أمره واجتناب نواهيه .

قال ذو النون الحب الإلهي: "هو سقوط المحبة عن القلب والجوارح حتى لا يكون
فيها المحبة وتكون الأشياء بالله والله¹.

وعرفت رابعة العدوية بكونها شاعرة فلسفة الحب، تقول:

أحبك حبين.. حب الهوى *** وحباً لآنك أهل لذاك
فأما الذي هو حب الهوى *** فشغلي بذكرك عمن سواكا

¹ - السراج الطوسي: اللمع ، ص188.

3- الغرض الثالث: الزهد:

الزهد في الحياة هو ترك ملذاتها، والانصراف عن شهواتها والبعد عن بهرجها الكاذب وزخرفها الخداع، والاكتفاء بالضروريات الحياة، والصوفية الزهاد أمثال معروف الكرخي ورابعة العدوية والجنيد وغيرهم، وهو نزعة إسلامية خالصة حيث أن القرآن الكريم حذر من الافتتان بالدنيا وانخداع بها والغرور بمباهجها.

بعد القرن الثاني الهجري بدأت حركة الزهد في النمو والانتساع أدى ذلك إلى شيوع الروح الدينية في الأوساط الاجتماعية غير أننا لا نلمح في هذا الوقت تطورا لشعر الزهد إلى تصوف حتى نهاية القرن الخامس الهجري .

يقول مالك بن دينار في الزهد:

أَتَيْتُ الْقُبُورَ فَنَادَيْتُهَا *** أَيْنَ الْمُعْظَمِ وَالْمُحْتَقَرِ

وَأَيْنَ الْمُبْدِلِ بِسُلْطَانِهِ *** أَنْ الَّذِي رَزَقِي سَوْفَ يَأْتِي

ويقول سحنون بن حبيب التنوخي الذي كان منهجه قائما على الزهد في الدنيا والتعبد والذي كانت أشعاره تتمحور حول محاسبة النفس والتذكير بالموت كقوله:

لقد جمحت نفسي فصدت وأعرضت *** وقد مرقت نفسي وطال مرققه

فيا أسفي من جنح ليل يقودها *** وضوء نهار لا يزال يسوقه

إلى مشهد لا بد لي من شهوده *** وجرع الموت سوف أدوقه

خصائص الأدب الصوفي:

لكل علم أساليب أدبية خاصة يتميز بها، باعتباره علما مستقلا تتعين مناهجه بالاعتماد على مصطلحاته التي غالبا ما تتطور بحكم التجربة الشخصية للمفكر ومن العلوم " الصوفية" التي تصور لنا الحياة الانعزالية للمتصوفة الذين يرون الأشياء بمفاهيم جديدة تختلف عن اعتقادات الناس، ومن خصائص الأدب الصوفي:

1- صدق التجربة الصوفية:الاديب الصوفي ليس مصنعا ولا متكلفا، إنّه عاشق ينفس عن مشاعره، ولواعجه بالكلمات.

2- الرمزية في التعبير: الأدب الصوفي يحتاج إلى استعداد نفسي، وإلمام باللغة الخاصة التي يؤثرونها. يقول ابن خلدون في مقدمته:"أنّ لهم مع ذلك آداب مخصوصة بهم واصطلاحات في ألفاظ تدور بينهم، إذ الأوضاع اللغوية إنّما هي للمعان المتقاربة."¹

3- وضوح البعد الفكري: الأدب الصوفي يحرك أعماق الإنسان بما يثيره في قلب هذا الإنسان من معانٍ سامية.

(1) ابن خلدون: المقدمة، دار الفكر، بيروت، لبنان، د.ط، 1424هـ-2004م، ص469

قائمة المصادر والمراجع:

- علي الخطيب :اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن عربي، دار المعارف، القاهرة، مصر، د.ط.
- السراج الطوسي: التّمع ، تحقيق: طه عبد الباقي سرور وعبد الحليم محمود، دار الكتب الحديثة، مصر، 1960م، د.ط.
- ابن خلدون: المقدمة، دار الفكر،بيروت، لبنان، د.ط، 1424هـ-2004م.